الغريب

قصة بقلم سليمان فياض

ـ ماذا سنسميه ؟

ـ الان ؟ سنسميه فيما بعد .

ـ لكنني سأفيد اسمه عند العمدة في دفتر المواليد ، ولا بد ان نسميه اليوم .

ـ ماذا سنسميه ؟

تنهد ابوه ، ونظر اليه . كانت القابلة تسقيه ينسونا ليغسل امعاءه . وحدت امه عينيها ، لتبصره في ظلمة القاعة . كانت ما تزال مضطجعة . وفكرت انه لا يمكن ان يعيش بدون اسم . وتذكر ابوه ما قاله الواعظ قبل ساعة : « ابن ادم في الدنيا غريب مسافر » . وراح يردد في نفسه : غريب ؟ نعم . غريب . غريب . ثم قال لنتوه :

ـ فلنسمه : الغريب .

ـ الغريب ؟

ـ نعم .

قالت القابلة بدهشة :

ـ لم هذا الاسم ؟

ـ هذا هو اسمه من الان . كلنا غريب يا امرأة .

مطت القابلة شفتيها ، وشالت حاجبيها ، وعكفت عليه . وصاحت امه بضعف : ـ انه اسم رديء جدا .

ـ ردىء . اسكتي انت .. يا ام الغريب .

من جحر في بحراية القاعة خرج فأر ، محركا ذنبه وذيله ، ورفع رأسه لحظة منصتا ، ثم وثب الى الفرن وغاب داخله . وكان ثمةصمت، لم تفلح مصمصة الغريب في قطعه . كان ابوه يرى ناسا يعبرون قنطرة ناحية واحدة الى شاطىء مظلم . وكانت امه تفكر ان كل ابنائها قد ماتوا ، ولما يبلغوا عامهم الخامس . وتذكرت انها قد ولدت الثاني ، ويداها تقطفان حشائش للارانب . وقالت فجأة :

ـ سيعيش الغريب ؟!

ـ نعم . سيعيش يا امرأة . لهذا سميته بهذا الاسم .

ابتسمت ام الغريب ابتسامة لم يرها احد . وفكرت ان اسم الغريب افضل من اسم الشحات مثلا . ومدت القابلة يديها بالغريب، واضجعته عند ابط امه . وحدق ابوه نحوه . رآه ، وقد كبر ، وتزوج، وصار سيد هذا البيت .وشعر بالراحة ، لانه سيترك له فدانين يقيانه شر الحاجة . وودت امه لو كان لها ان تسميه نوحا ، ليعيش العمر كله.

ـ ١ ـ

اقعى الغريب على شاطىء الترعة الجافة ، مستندا بظهره الى خص شيد سريعا من فروع اشجار ، واعواد سمار . لم يكن ثمة ظل لشيء . وبدا كل شيء جافا لعينيه : الترعة ناضبة ، وقد اتموا تعميقها . اكوام الطمى جفت نتوءاتها على الشاطئين . المزارع تشققت عطشا على مد البصر . جدران السمار ، في الاكواخ الممتدة ، كادت تتقصف تحت الشمس . وفكر الغريب انه حتى وجوه الانفار ، قد صارت جلودا على جماجم ، وعيونهم غائرة . وسمع الغريب رفيف اجنحة ، واصوات تغريد ، فصعد بصره الى الاشجار على الشاطىء المقابل . كانت مليئة بالاوراق والعصافير . واحس الغريب بالدهشة . وتمنى لو كان شجرة تضرب جذورها في اعماق الارض بعيدا عن الجفاف ، او حتى عصفورا لا تخطىء عيناه حبة قمح تائهة . وعدل الغريب جلسته ، واراح ظهره جيدا على القائم الخشبي خلفه . وبدا صدره عاريا في فتحة ثوب خلق ، ويداه مرميتان بين بطنه وفخذيه . وارتفع صوت من كوخ بعيد على يساره مؤذنا ، لكن احدا لم يصل .حتى المؤذن نفسه تكاسل ، فجلس في الشمس امام خصه .

في كوخ الغريب كان رفاقه الثلاثة نياما ، وقد غطوا وجوههم باطراف ثيابهم . استيقظ احدهم وجلس زافرا.واحس الغريب بحركته، فناداه ، وجاءه صوته مجيبا :

ـ لا . الشمس عندك في الخارج حامية .

برقت عينا الغريب ، وقال مداعبا :

ـ لكن الحال من بعضه . فالكوخ بلا سقف ، والشمس فوق الرأس تماما ، وليس من ظل لشيء الان .

وبدا للغريب انه سيكسل ، ولن يأتي . فقال ملحا :

ـ تعال يا امين . تعال يا ولدي .

خرج امين ، واقعى بجواره ، دون ان يسند ظهره . خاف ان يفعل فيتداعى جدار السمار وراءه . وتنهد امين كازا على اسنانه ، ثم زم شفتيه مفتاظا . بلمحة عين ادرك الغريب ما يفكر فيه . قال الغريب :

ـ هل تعتقد انه سيأتي ؟

ـ سيأتي . هو قال ذلك . لا بد له ان يأتي .

ـ انا ايضا اعتقد انه سيأتي . لا يمكن ان يترك كل هذه الارواح ، ويذهب .

ـ نعم . لا يمكنه ذلك . هو اتى بنا هنا لنعمل . ولقد عملنا . وعليه أن يدفع لنا ، لنذهب .

وصمتا . وعلى مد البصر ، بدا النيل مكتظا بالمياه ، وبدت السماء فوقه رمادية مضببة . وقال الغريب بحيرة :

ـ نعم . لا يمكنه ذلك . لكن . لم لا يمكنه ذلك . اقول لك : يمكن ، ولا يمكن .

ـ لكنه قال ثلاثة ايام ويأتي .

ـ ولقد مضت عشرة ايام. من يدري . الغائب عذره معه .

على الشاطىء المقابل مرقت سيارة صغيرة ، لمع زجاجها في الشمس . ووضع امين كفه على عينيه ، متابعا السيارة حتى اختفت. ثم قال : ـ له سيارة تضوي مثلها .

فاجابه الغريب غير مكترث :

ـ ولو . في النهاية سنرقد معا نفس الرقدة .

وصمتا . ومرقت سيارة صغيرة اخرى . فقال امين ، وعيناه على عاصفة الغبار المدومة :

ـ هل نظل ننتظر هنا ؟ لقد انهينا تطهير مقطوعيتنا ، فلم لا يأتي ؟

قال الغريب :

ـ الانفار جميعا على طول الفاروقية انتهوا من تطهيرها .

واضاف مؤكدا :

ـ سيأتي . هو قال ذلك . وعلينا ان ننتظره حتى يأتي .

ـ اف . في هذه الشمس !

لم يجبه الغريب . مد بصره بعيدا الى النهر ، وبرقت في عينيه

انعكاسات الشمس على المياه . وفكر الغريب ان التحاريق ستنتهي قريبا ، ويأتي الفيضان ، وسيفتحون البوابات لتمتلىء هذه الترعة بالمياه . وابتهج الغريب لان كل شيء لن يكون جافا . وكانت الظلال تمتد عبر الارض على مهل . كان امين صامتا ، يرقب الابار التي حفرها في قاع الترعة الجافة ، بئرا ، بئرا . لم تمض عليها ليلة حتى امتلات بالمياه ، ليشرب منها الانفار. واحس امين بالظمأ ، ورغب في ان يشرب، فقال :

ـ اف . انا جائع !

فقال الغريب مؤيدا :

ـ لم يفطر احد بعد . ايقظ الاخرين لناكل .

قال امين بدهشة :

ـ ناكل ؟ ماذا ناكل ؟

ـ هس . ايقظهما . اذهب .

ـ يا عم الغريب . لم يبق معنا شيء لناكله .

وضع الغريب كفيه حول فمه، وصاح هامسا ، حتى لا تسمع الاكواخ الاخرى :

ـ اكياسنا بها بقايا خبز .

ـ برقت عينا امين ، وتحفز لينهض :

ـ صحيح ؟ تكفينا لناكل ؟

قال الغريب مؤكدا :

ـ نعم . فحصتها بنفسي وانتم نيام . اذهب وايقظهما . لا تدع احدا يسمعك .

ذهب امين ليوقظ الاخرين . ونهض الغريب ، وتناول من باب الكوخ كوزا صدئا ، وهبط الى الترعة ، وملاه ماء من البئر ، وصعد الى الكوخ . كان رفاقه قد افرغوا بقايا الخبز من الاكياس على منديل . واخذوا جميعا يستخلصون بقايا الخبز من الاعشاب والحصى ، دون ان ينبسوا بحرف .

ـ ٢ ـ

فرغت بقايا الخبز من امامهم سريعا . وقال امين لجاره :

ـ على . شبعت ؟

ـ لا .

ـ ولا انا .

فقال الغريب لهما :

ـ اشربا ماء . الماء يملأ البطن دائما .

وشربوا ماء حتى ارتووا ، واحسوا بالشبع . وظل الغريب وامين جالسين في ظل الحائط الغربي ، بينما تمدد الاخران بجوارهما تاركين سيقانهما في الشمس . وشطت افكار الغريب بعيدا ، فقال لامين :

ـ ناجي مات .

ـ اعرف .

ـ كان قاسي القلب . ولدي البكر كان مثله .

وشرب امين ما بقي في الكوز . وشال احد الراقدين بعينيه اليهما ، قائلا :

ـ من ناجي ؟

قال امين :

ـ موظف في مصر ، من نجعنا . انت لا تعرفه يا محمود ، ولن تعرفه ، لانه .. مات .

عاد الغريب يقول :

ـ قلت لك يا امين انه كان قاسي القلب . لم يعرفه احد في النجع كله مثلما عرفته انا .

واضاف مؤكدا بسبابته :

ـ ليس بوسعك ان تعرف احدا معرفة جيدة ، حتى تعاشره .

نظر امين الى الغريب . شيخ عجوز كان ينبغي ان يفنى منذ زمن طويل . ضمرت عظامه ، ولم تعد قطعة في جلده بلا غضون . وتعجب كيف ان عينيه ما تزالان حادتين ، وصف اسنانه ما يزال كاملا . وفكر ان مثله لا بد وان يكون حكيما الان . وتذكر امين العرافة الفجرية التي تدور على النجوع وتقرأ البخت. وفكر ان الغريب جدها القديم ، فعمره الان ليس اقل من مائة وعشرين سنة ، ولعله ان يعيش ، مثل نوح ،الف سنة الا خمسين . ودومت في صدره رغبة غامضة ، فقال :

ـ عم الغريب . لقد عاشر احدنا الاخر . فهل عرفتني جيدا ؟

ابتسم الغريب بثقة ، ثم قال :

ـ لست قاسي القلب مثله يا امين . لكن حدة فيك .

وتوقف الغريب لحظة ، وحدق في الفراغ ، وفمه مفتوح ، وراحت اصابع كفه تتذبذب في حركة دائرية ، وهو يكمل قائلا :

ـ قد تدفعك الى قتلي .

شعر امين بالغيظ ، وكز على اسنانه . ثم انفجر في ضحكة متقطة ، قائلا للاخرين :

ـ لا تلوموه . مائة وعشرون سنة . لا بد له ان يخرف .

شهق محمود ، ونهض متكئا على مرفقه ، وعاود النظر الى الغريب، ورقد ثانية ، بينما قال علي :

ـ ياه .. عمر طويل ، لا يعيشه احد في ايامنا .

كان امين ما يزال يحس بالالم ، لانه قد يصير قاتلا ، فقال باستفزاز :

ـ وتصوروا انه ، في سنه هذه ، ويذهب الى مصر ، ليشتغل خادما عند ناجي .

فتح الغريب كفيه بلا حول ، وقال معتذرا :

ـ الحاجة . انت تعرف ذلك يا امين .

ـ في سنك ، وتشتغل خادما ؟ ما الذي دفع بك اليه ؟

ـ انا ، كما جئت هنا ، في سني ، ذهبت اليه .

زفر امين من انفه منكرا تبريره . وقال محمود فجاة ، ليخفف شعور العجوز بالضيق :

ـ كيف مات ناجي يا عم الغريب ؟

قال الغريب ، وقد نسي ضيقه سريعا :

ـ توقف قلبه ، فمات . هذا كل ما حدث . وهكذا قالت امه .

وقال علي :

ـ انا لله ، وانا اليه .. تلك حال الدنيا .

واضاف الغريب حزينا :

ـ كان وجهه موردا . الناس هناك ، في مصر ، وجوههم موردة ، لكنهم يموتون ايضا ، في سن مبكرة . يولدون ، ويتعبون ، ثم ..ينتهي كل شيء فجاة ، كانهم عاشوا ينتظرون تلك اللحظة ، يذكرونها دائما ، دون ان يعرفوا متى تاتي .

قال امين بلامبالاة :

ـ الموت لا يخيفني ،ما يعنيني ان اجد طعاما وكسوة . ذلك ما افكر فيه دائما .

علق الغريب قائلا :

ـ الدنيا كلها تشقى من اجل ذلك .

لم تبد على احدهم رغبةفي النوم ، ولا في الصمت . كانوا بحاجة الى ان يسمعوا رنة اصواتهم ، خاصة حين تنقطع اصوات السيارات المارة . واحس الغريب انه ينصهر في قيظ الظهيرة ، ووهج الضوء . وشعر لذلك بلذة معذبة ، شعور قديم عاناه احيانا معها ، مع جسدها الساخن ، في ليال مظلمة باردة. وتململ علي في ضجعته سأما من الصمت . ورغب محمود في أن يهز ركود الاشياء . قال :

ـ مسكين .

قفزت اذهانهم جميعا الى ناجي.وظن امين انه يعني الغريب بكلمته. وهفا قلبه رحمة نحوه . وقال الغريب :

ـ كنت اكرهه حقا . لكن عندما مات ، لم يبق في نفسي شيء ضده.

قال امين بلا غضب :

ـ لكنك ما زلت تكرهه ؟

ـ انا . لا .كنت اكرهه . كنت . لكنني لم انس انه تركني اعود

من مصر الى نجعنا ،بعد ان عملت عنده ، شهرا ، شهرا بطوله ، دون ان يعطيني اجرة القطار .تسولتها من الناس في المحطة ، وانا غارق في الخجل . قلت ذلك لامه . وكلما تذكرت ذلك ، اقول لنفسي : لكن ذلك كله ، انتهى بموته .

قال امين ،وهو يهز رأسه :

ـ الحق عليك انت .

واضاف الغريب متنهدا ، كأنه لم يسمع لومه :

ـ مع أن اباه كان يعمل في ارضي ، طردني . لم ؟ لانني كنت انسى ما يكلفني بشرائه . وكيف لا انسى وانا اهبط درجات عشرة طوابق ، اكثر من عشر مرات في اليوم . وفي سني .

عاد امين يقول :

ـ الحق عليك انت .

ـ نعم . الحق عليانا يا بني . الحق علي لانني عملت عنده .

قال امين بعناية :

ـ خادما !!

اجابه الغريب بحكمة :

ـ خادما ؟ كل الناس يخدمون بعضهم بطريقة ما . لكن كيفكان بوسعي ان اعرف ناجي دون عشرة . ستقول : تعمل خادما في سنك ؟ ولم لا ؟ اليس هذا افضل من مد يدي ؟

قفز خاطر الى رأس امين . فقال لتوه :

ـ يا عم الغريب .يقولون في الامثال : الحي ابقى من الميت .

ـ نعم .

ـ لو انك ابقيت على نصف فدان . النصف الاخير فقط، لعشت بسلام ، ولما جئت تعمل هنا .

قال الغريب معتذرا :

ـ يا امين ، يا بني . كنت احبهم جميعا .

ـ واحفادك ؟ الم تحبهم ؟

تنهد الغريب قائلا :

ـ طبعا . لقد ندمت على ما فعلته ، حين لم يصبح في يدي اي شيء لاجلهم . ولذلك فهمحاقدون علي.ونادرا ما يذكرونني بطعام او ثوب، حتى ولو بكلمة طيبة .

وصمت الغريب لحظة ، ثم قال :

ـ لكنهم على اي حال دبروا حياتهم بسواعدهم .

وشعر الغريب بالرضا لانهم دبروا حياتهم بسواعدهم . وفكر امين ان بعض احفاد هذا العجوز ، قد ملكوا ارضا من العدم ،وان الاخرين يستأجرون ارضا ، ولم يعد ايهم الان يخرج مع التراحيل . وتمنى امين لو كان ابنا لهذا العجوز ، ليورثه قدرته الخارقة على العمل والصبر . احفاده ورثوا عنه هذه القدرة . لو كان هذا جده ، لفاخر به الكل . وعزم امين ان يحمي هذا العجوز ، ذا المائة والعشرين سنة.

وتذكر الغريب اصغر ابنائه . وراحت تهزه ذكريات قديمة جميلة : ذات يوم كان جالسا في الظهيرة ، في ظل نخلة ، وزعق فيه . كان يقطف زهورا من شجيرات القطن . انثنى الولد على حصاة ، وطوح بها نحوه غاضبا ، فشجت جبهته . ولمس الغريب باصابعه نفس الموضع، ونظر الى اصابعه ، فلم يرد ما . وتنهد الغريب ، وبانت في وجهه سعادة عريضة . قال الغريب :

ـ اصغر ابنائي ، في ايام كهذه ، صنع لي تمثالا من الطين . عجنه بصمغ السنط . كونه بيديه ، ثم تركه يجف في الظل . كان يشبهني تماما . اخذته ورميت به في الجبل . دار بخاطري انه يقلد الله . لم ادرك قيمة ما فعل ، الا بعدتسعين سنة ، حين رأيت تمثال سعد في مصر.

قال امين ضاحكا :

ـ العتب على النظر .ربماحسبك مثل سعد .

وضج الاخران بالضحك . فقال الغريب محتجا :

ـ سعد كان فلاحا ابن فلاح . ليته اخذ نصف عمري وعاش .

فقال امين لتوه :

ـ حرام عليك يا عم الغريب . بعد ان كان زعيما تريده ان يحمل فأسك ومقطفك .

وضحك الغريب معهم هذه المرة ، حتى ذابت بهجتهم . وتناهت اليهم اصوات الانفار في الاكواخ الاخرى . وفكر الغريب انهم يضحكون يحيون ، برغم انه لم يأت بعد . ووقعت عيناه على ذرات خبز متناثرة على ساقيه ، فنفض ثوبه . ودار امين حول جذعه ، وتمدد بجوار الاخرين ، مسندا رأسه الى ساعده . وسمع الغريب صوت سيارة مقبلة من بعد ، فراقبها حتى مرقت امامه على الشاطىء الاخر ، تاركة خلفها دوامة من الغبار . وراقب العصافير وهي تلوذ فزعة باعالي الاشجار . ومن كوخ بعيد ، على شاطئه ، زعق صوت ما في يأس :

ـ متى يأتي المقاول ؟

ورد عليه امين من رقدته هامسا :

ـ حين يأتي البرتقال في الصيف !

وفكر الغريب انه من اللازم ان يأتي المقاول . لا بد له ان يأتي. ولا بد لهم ان ينتظرواعودته . وفكر : كيف تكون حال عالم لا يأتي فيه المقاول ، ولا يعرف انفاره كيف يواصلون الانتظار ؟! . وناد على امين ليقول له ذلك . ولما لم يسمع جوابا ، ادرك انهم قد ناموا سريعا . وكان الظل يقترب مسرعا من الحائط المقابل . وتشاغل الغريب مع نفسه، في متابعة احاسيس غامضة ، راحت تدور في رأسه مسرعة .

ـ ٣ ـ

تجاه رءوسهم جميعا ، تمدد الغريب على جنبه ، كان ظهره اليهم. واحس في وضعه بالانزعاج لمرأى الترعة ناضبة ، فرقد على ظهره . كان العالم فوقه ساطعا ، والسماء مضببة بسحب لا ترى ، ورفت فوق عينيه جريدة نخل ، حركتها نسمة عابرة . وفكر ان العصر يقترب موعده، وصدق حدسه ، فقد راحت نسمات تتتابع ، محركة جريد نخلة صغيرة بعيدا عن عينيه ، واخذ الضوء والظل يتقاطعان بينها ، فذكر الميلاد والموت . وفكر ان الناس يذهبون ويأتون ، وهو باق لا يذهب مثلهم .

تطلب ((الآداب))

ومنشورات دار الاداب

في السودان

من

مكتبة الجمهورية

لصاحبها السيد عبد الرحمن يوسف محمد نور

تلفون ٥٠٢٢٨ ص.ب ٥٨٣

ام درمان

ويرجى من المتعهدين واصحاب المكتبات الاتصال به للاتفاق على كل ما يتعلق بالتوزيع

كم تمنى ان يحدث ذلك .مائة وعشرون تحاريق تمر عليه ، وهو : الغريب المسافر في الدنيا . واحس الغريب انه يخرق الزمن . وفكر ان الناس يحقدون عليه لذلك ويحسدونه ، حتى احفاده الذين ماتآباؤهم، وكلهم يتساءلون : متى يرحل هذا العجوز الخرف ؟ وغمره احساس بالعار ، لانه ما يزال يحيا . وشعر ايضا بالسعادة لذلك . وشال بعينيه الى الجريد .. وراقب برهة تقاطع الظل والضوء . وانصت الى حفيف لا يكاد يسمع . وقال في نفسه : الدنيا جميلة لمن في رأسه عينان . واردف في اللحظة التالية حزينا : لكنه سوف يأتي ذات فجر، والناس نيام ، ويأخذك معه . لن تجد الارض فيك سوى عظام .مسكينة انت يا ارضنا . لسوف تتعبين سنين طويلة ، في تفتيت عظامي . وابتسم الغريب زهوا بعظامه . واحس ان النوم يثقل على عينيه،فجذب مقطفه ، وادخله تحت رأسه ، واراح رأسه فوق ساعديه . واحس في لحظة بمن يؤذن . وفي رؤيا ضبابية ، شاهد المؤذن ينتهي ، ولا احد يقيم الصلاة ، والمؤذن نفسه يعود لينام ثانية .

ـ ٤ ـ

صحا الغريب قرب الغروب ، على اصوات فئوس عديدة تضرب، وضجة الانفار على طول الشاطىء عالية كأنهم في حرب . وسمع الغريب صفيرا عاليا في اذنيه ، فهب واقفا مفزعا ، والفأس في يده . كان برغم انحناء كتفيه فارع الطول ،وثوبه لا يجاوز ركبتيه بمقدار شبر . واطلت رأسه فوق حائط السمار . فانوا يقطعون نخلات متناثرة على شاطئهم ، نخلات صغيرة ما تزال ، يضربون سوقها بفئوسهم ، ويحنون هاماتها بالحبال . وخرج الغريب من كوخه مسرعا ، تاركا فأسه تسقط من يده . ورأى النخلة التي كان يتأمل جريدها طريحة امامه . قال لامين منكرا :

ـ امين ؟ ماذا تفعلون ؟

لم يسمع الغريب جوابا . كان امين ورفيقاه مشغولين بنزع طلح ناصع البياض ، طلح النخلة الصغيرة . واحس الغريب بالحزن. فكر انها امتعته بلحظات سعيدة ، وانها بعد صغيرة . وهجست في نفسه خواطر لم يشعر قبلا بمثلها وضوحا : المقاول يأكل الانفار . والانفار يأكلون النخلة الصغيرة . والارض تأكل الكل . ولسوف يأتي يوم يؤكل فيه الجميع : الارض ، والشمس ، والنجوم . آكل ومأكول . دائن ومدين . دورة دائبة لا يعرف متى تنتهي . واحس بحنين خفي الى ان يؤكل ، يذوب في الارض ، وينتهي من هذا الامر . وسرح بصره حواليه. اكثر النخيل قد سقط تحت اقدامهم . والطلوح بين فئوسهم رائعة البياض . واحس بفمه يمتلىء لعابا . وراحت بطنه تقرقر . قال الغريب لائما :

ـ امين . كان ينبغي ان توقظوني ، لاسقط النخيل معكم .

ـ نومك ثقيل . اراهن انك لم تصح الا عندما سقطت النخلة على الارض .

قالها امين وهو يعمل ما يزال . وابتسم الاخران لحقيقة العجوز. وتلفت الغريب حواليه باحثا عن فأسه . هم بان يميل الى الكوخ،ويأتي بها ، لكن امين نهض بجذعه واقفا ، وقال جادا :

ـ قل لي . انت اكبر منا سنا :

واشار امين حواليه بكف يسراه قائلا :

ـ اليس ذلك خطيئة ؟!

واجابه الغريب معتذرا عن نفسه ، وعنهم :

ـ الحاجة . قلت لك ذلك . الحاجة .

وبدا كلاهما متجمدا في مشهد يضج بالحركة . كفا امين على يد فأسه . وكفا الغريب وراء ظهره . واضاف الغريب دون تفكير :

ـ الجوع يجعل الناس يأكلون حتى موتاهم .

ظهر الامتعاض على وجه امين ، ونثر الهواء بيده قائلا :

ـ موتانا ؟ شيء مقرف !

وركع امين بجذعه ، وواصل العمل بحد فأسه . وفكر امين انهم لن يتركوه حتى يفعلوا ذلك بانفسهم . واقعى الغريب على قدميه،دون ان تمس عجيزته الارض ، ويداه ممدودتان امامه على ركبتيه . وراح يرقب العمل الدائر . وفكر الغريب انهم قد يأكلون موتاهم هنا .وفكر انه ينبغي عليه لذلك ان يأتي . وكانت الشمس قرصا دمويا على حافة الافق .

ـ ٥ ـ

ازداد الانفار اقتناعا بصواب ما فعلوه ، وهم جالسون على حافة الترعة امام اكواخهم ، يأكلون . كان خطهم ممتدا ، في حلقات متتابعة، على مد البصر . وضج الشاطىء بضحكاتهم ، في غبش الغروب المعتم . ونقيق الضفادع في ابار الترعة تائه في اصواتهم . وروائح الطمى والنخيل ، وراء الاكواخ ، تملأ الانوف .

ـ ٦ ـ

زحفت الظلمة تماما ، وسربلت كل شيء . وليس ثمة ضوء . وكان الانفار في اكواخهم ، يحلمون بجرعات من الشاي الاسود . ولم يكن ثمة نار ولا دخان . ونادى صوته مؤذنا . وكان الغريب ورفاقه في كوخهم . وضحك امين قائلا :

ـ شبع اولا ، ثم اذن .

واذ كانوا يضحكون علق الغريب :

ـ يظل عقل الانسان في بطنه حتى يشبع .

وعلق محمود مؤكدا :

ـ معلوم . معلوم . اي نعم .

واردف الغريب قائلا:

ـ خلال ايام سيجف كل هذا في الشمس .

واشار بيده وراء الاكواخ . واضاف حزينا :

ـ مضت سنوات حتى كبر النخل ، واوشك ان يثمر !

وقال محمود :

ـ ما كان ينبغي لنا ان نفعل ذلك به !

وصمتوا ، وطال صمتهم . كانوا جالسين في الكوخ يرقبون النجوم،ونقيق الضفادع يترجم لهم ما يحسون به من حزن على النخيل. واصوات الانفار في الاكواخ الاخرى ، تتداخل هامسة في اذانهم،كطنين النحل في خلاياه ، في ليلة صيفية معتمة . وقال علي :

ـ اصحابه سيأتون في الصباح ، مع الضحى ، ليروا املاكهم .

وعلق محمود :

ـ سيرون اي كارثة حلت بنخيلهم .

وتنهد الغريب ، ثم قال :

ـ كانوا يحلمون باليوم الذي تتدلى فيه عناقيد النخيل .

واضاف محمود :

ـ ولسوف يقتلوننا جميعا ، مقابل نخيلهم .

فقال امين مؤكدا :

ـ مع الفجر ،سنكون قد رحلنا جميعا من هنا ، قبل ان يفعلوا ذلك بنا .

قال الغريب منكرا :

ـ نرحل ؟ وحين يأتي ، من يجده منا ؟

وقبل ان يجيبه احد،راح احدهم في كوخ ما ، ينشد موالا حزينا ، فسكنت الاصوات في كوخهم ، وفي الاكواخ الاخرى . وراح الغريب يهز رأسه معجبا ، وكان الاخرون يتمتمون بكلمات لا تسمع . وحين مرقت اخر سيارة على الشاطىء الاخر ، لم ينتبه لها احد . ونزت في اعماقهم دموع لا ترى . قال امين:

ـ صوته حلو . صوت صعيدي اصيل .

فقال الغريب بلهجة قاسية :

ـ شيء شائن . هذا الحزن في صوته .

وحدق امين في الظلمة الى وجه الغريب ، ورمش بعينيه . وفكر ان الغريب يحيره . كان نقيق الضفادع يتجاوب مع الغناء العريض الحزين . وعلا صوت المنشد مناداحا فوق الجفاف ، وطال توتره ، حتى صاح الغريب ثائرا بانفعال :

ـ اين سنذهب ؟
صاح امين بذات الحدة ، في غضب :
ـ الى بلادنا .
واضاف في استسلام :
ـ لا بد ان نذهب .
وتوقف صوت المنشد . وران الصمت في الاكواخ . وقال الغريب متوسلا :
ـ لكنه قال انه سيأتي .
فقال امين مؤكدا :
ـ لن نتركه حتى ناكل بعضنا . ويقينا انهم سيقتلوننا ، قبل ذلك ، لو بقينا هنا .
ثم اضاف بهدوء :
ـ يا عم الغريب . فكرنا وانت نائم . كل الانفار اجتمعوا . ورأينا ان يكون نصفنا عاقلا ، والاخر مجنونا. وجدنا انه لن يأتي ، ونحن لا نعرفه . واحد من المقاولين لا نعرف من هو ، ولا من اي بلد . جاء وقال لنا : تعالوا لتعملوا ، فجئنا لنعمل . وحين انجزنا ما علينا، تركنا واختفى .
فقال الغريب محتدا :
ـ كيف ؟ نحن هنا مائة ، وهو واحد ، ولا يمكن ان يغلب واحد مائة ، ويسرق اجورنا.
فاجابه امين مترفقا :
ـ يا عم الغريب ، نحن موجودون هنا الان ، ومعرضون لحرب من اهل الناحية ، حين تشرق الشمس . وهو غائب ، لا نعرف اين . والعمل قد انتهى . ليس بيننا عقد . ولا يمكن ان ننتظره ، ولا حتى ان نبحث عنه . نحن لا نعرف من اسمه اكثر من انه : البك المقاول . اخر ملاذ لنا كان هذا النخل ، ولا بد ان نعود ، كي لا نقتل ، او ناكل بعضنا من الجوع .يا عم الغريب : مع الفجر سنذهب من هنا .
قال الغريب حزينا :
ـ نذهب . بخيبة الامل . لا . اذهبوا انتم . سابقى وحدي هنا.
قال امين دون ان ينظر اليه :
ـ يبدو انك خرفت تماما . لكنك من بلدي ، وعلي حمايتك .
وقال محمود :
ـ هذا واجب عليك . ونحن معك عليه .
وقال علي :
ـ مع الفجر سنذهب به معنا .
فقال الغريب بهدوء :
ـ اذهبوا انتم . سابقى وحدي هنا .
وصمتوا . فكروا انه لا جدوى من اقناعه الان . ودون اتفاق بينهم، تركوا هذه المسألة ، حتى تحين ساعة الرحيل . وانصتوا جميعا لصمتهم . صمت طويل مبطن بنقيق الضفادع .

ـ ٧ ـ

كانوا جلوسا في الكوخ ما يزالون . ونقيق الضفادع قد استحال ضجة اغرقت في اذانهم كل الاصوات الهامسة البعيدة . قال الغريب محدثا نفسه ، بصوت عال :
« فدانان بحالهما . كلما مات لي ولد بعت منهما نصف فدان ، واقمت له جنازا لم تشهد قرية ولامدينة مثله : صوان ، ومقرىء ، وذبائح . لم افعل لاحدهم ذلك في ميلاد او زواج . احببتهم جدا عندما ماتوا . كلما مات احدهم شعرت انني كنت دائما ، احبه وحده . كنت احس بالذنب لانه مات .وبقيت انا . لانه مات قبلي » .
همس امين لرفيقيه :
ـ انه يحدث نفسه .
ـ نادم . انه يندم.
واضاف الغريب بذات اللهجة :
« والان . نسيتهم . حتى انا ابوهم نسيتهم » .
والتفت الى امين قائلا :
ـ كان الحي ابقى من الميت .
فقال امين :
ـ عم الغريب . هذا امر فات . فارج حسن الختام .
هتف علي ليغير الحديث :
ـ لقد نسيت كم اجرنا في اليوم . تصور انني نسيت ذلك .
فقال امين جادا :
ـ سرقنا العمل . لكنني لم انس . سبعة قروش في اليوم.ونحن مائة ، او الف ، او يزيد.
وقال محمود :
ـ اشتغلنا شهرا ويومين .
فقال امين :
ـ ايام بطالتنا لا حساب لها ، ولا الايام العشرة التي قضيناها هنا في انتظاره .
كان الغريب ينصت بنصف عقله . وجهد ليرى كم لهم جميعا في ذمته ، لكن الارقام كانت تنمحي تباعا في رأسه . فاراح نفسه بمشقة.
وقال في نفسه مرارا : « سيأتي . لا بد ان يأتي . لا يمكنه الا ان يأتي»
وراح يحلم بما سو ف يفعله بعد ان يأتي . وكان حلما شديد القصر ، فقال لرفاقه ولنفسه معا :
ـ حتى يأتي موسم جمع القطن ، لا بد ان اعيش . ولكي اعيش لا بد ان انال حقي في يدي ، واستريح لاسابيع في عشي ، على حافة البركة ، وساقاي مدلاتان في مائها ، والغربان تنعق فوق رأسي على اغصان شجرة الجميز ، بينما الشمس فوق الرءوس تماما .
وانبسطت اساريره في الظلمة ، وراح يواصل حلمه في سريرته. ونقيق الضفادع يتجاوب بعيدا على حافة النهر ، وفي قيعان الترعة . وراحت احساسات كئيبة تغمر مشاعره . فصاح في رفاقه :
ـ الحق علي انا .
ولم يبد له ان احدا يسمعه ، فاكمل موضحا :
ـ اردت ان اعول نفسي، بعيدا عن بخل احفادي ، وسؤالي الناس.
ولم يبد ان احدا قد سمعه بعد ، فاكمل قائلا :
ـ توسلت اليه ان يأخذني . قال انني كبير السن . جئت بفأسي امامه . حدث ذلك امامك يا امين . انت تذكر ذلك. وظللت احفر بها في ارض الطريق ، حتى اخذني .
ولم يشعر بالراحة لما قاله ، فراح يحدق في وجوههم مستطلعا .
فقال محمود وهو يتنهد :
ـ سيدخل جهنم ، لانه شرب عرقنا .
فصاح الغريب محتدا :
ـ جهنم ؟ ماذا يفيدنا ذلك ؟ ماذا يفيدنا قتله بعد قتلنا ؟
وكز الغريب على اسنانه كشاب في عنفوانه ، وقال :
ـ لو رأيته ، واصر الا يدفع ..
ونهض الغريب واقفا ، ورفع فاسه فوق رأسه ، قائلا :
ـ لقتلته بفأسي هذه ، ودخلت جهنم بدلا منه .
كانت يداه قد نزلتا بفأسه ، فوق رءوسهم ، مسافة قليلة . ثم سقطت الفأس من يديه المرتعشتين وسط دائرتهم ، فلمست يدها ساق امين . وراح الغريب يهدر مرددا :
ـ جهنم ذاتها !جهنم ذاتها ! جهنم ذاتها !
انزعج رفاقه ، وخشوا ان يصيبه مس . فاحاطوا به مهدئين.وظل ينتفض بين ايديهم حتى هدأ ، واخذ يهز رأسه يمنة ويسرة ، ناظرا الى اسفل . وقال :
ـ لا ادري لماذا يسكت الله عن هذا الظلم ؟
وشال برأسه الى اعلا ، فاومضت في عينيه النجوم ، فرفع قبضته الى السماء ، وهزها مرتين ، ثم سقطت الى جواره . ونظر اليهم قائلا : ـ هل تدرون انتم ؟

ـ التتمة على الصفحة ٤٦ ـ

الغـــريب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٢ ـ

فكروا انه يقول الحقيقة . وخافوا ان يديروها في انفسهم.فقال امين وهو يجلسه :

ـ وحد الله يا عم الغريب . انت على وشك ، فارج حسن الختام.

تهاوى الغريب جالسا ، وجلسوا بازائه . قال الغريب :

ـ لم يحدث معي في الدنيا شيء حسن !!

ـ احمد الله يا عم الغريب .

ـ كرهت ارضكم هذه .

وادار الغريب كفيه وعينيه حواليه ، واردف :

ـ والان . آن للغريب ان يرحل .

ـ وحد الله ونم.

وسوى امين له من قطف والفأس وسادة ، وارقده على جنبه . واخذوا يعدون وسائدهم ، ثم رقدوا بجواره . قال الغريب لامين :

ـ كيف سنعود ؟

ـ على اقدامنا .

ـ ياه .من هنا الى قوص ؟

ـ نعم . ثم منها الىنجعنا .

ـ لكن قوص بعيدة جدا . ولسوف نجوع مرات في الطريق .

ـ سنجد ما نأكله في الطريق .

ـ ونسأل الناس ؟! دائما نسأل الناس !

ـ ليس لنا خيار . ولا بد ان نصل الى قوص ، ومنها الى نجعنا.

واستدار الغريب على ظهره ، وجبهته السماء : ارضا اخرىخادعة، عامرة بالمنى ، في اعين النجوم . وود لو يبصق عليها ، لو يفرق كل شيء في بصقته . وفكر : ما جدوى حتى في ذلك نفسه . فتنهد ،واضاف بعد صمت طويل، فياستسلام :

ـ طيب .

واغمض عينيه ، وانحدر سريعا في عتمة النوم . والاخرون ما زالوا ايقاظا ، ينصتون للضفادع ويحدقون في النجوم .وانبثقت ترانيم عودة حزينة . وراح الغريب يحلم :

ـ ٨ ـ

ايقظوه مع الفجر ، والاشياء مكللة بالندى ، والنجوم : تنحدر في الافق ، وتحتضر في اماكنها ، والرجال : يتنادون في ضياء الفجر ، ويتذاكرون ما جاءوا به وما نسوه وما فقدوه . وتباعا اخذوا يعلقون المقاطف من اذانها في القفوس ، ويرفعون القفوس على اكتافهم، واكياس الخيش الفارغة من الخبز على اكتافهم الاخرى :

ـ هيا يا عمي .

فصاح فيه :

ـ اذهبوا انتم .

ـ سنأتي معنا . لن نتيح لهم فرصة لقتلك .

ـ لن آتي . سانتظره هنا ، لآخذ اجوركم جميعا ، او اقتله بهذه الفأس .

ـ لا دخل لك باجورنا . فكر في اجرك انت . ستأتي معنا ، فلن يأتي ابدا . ولسوفيقتلونك اذا وجدوك هنا . فالتقط كيسك،وهيا بنا.

نفض يده بعيدا عن كفه :

ـ لن اذهب من هنا حتى يأتي . اذهبوا انتم .

صار الانفار حولهما دائرة .

ـ دعه يا امين . فلنذهب نحن .

ـ نعم دعه . انه يريد ان يريح نفسه على ايديهم .

ـ فليكن . سابقى هنا .

ـ كيف ؟

هاج ، والتقط الكيس ، ورماه له على كتفه ، وادخل يد الفأس في اذن مقطفه ، واطبق لهيده عليها ، ثم دفعه امامه :

ـ هيا امامي . انتابن بلدي . ولا يمكن ان ادعك وحيدا هنا.

ـ انا طفل حتى تدفعني بيديك . اولاد احفادي في عمرك يا امين.

في لحظة خاطفة . سل فأسه ، ورفعها على امين ، فيما كان المقطف يسقط خلفه ، وهوى بها . لكنه مال بجذعه ، مفاديا رأسه ، وتلقى الفأس على كفه ، وجذبها مطوحا بها في الترعة .

ـ لماذا نتقاتل ؟ .. لقد عشت على اي حال اكثر مما ينبغي : ابق كما انت . سأقول لهم انك مت فعلا .

انحدروا من الشاطىء الى قاع الترعة . مشوا في ارض حفروها بعناية ، ثم صعدوا الى الشاطىء الاخر ومالوا يمنةوواصلوا سيرهم في الضباب ، عبر اشياء لا ترى . وانزعج لان احدهم لم يلفت رأسه نحوه بنظرة واحدة . وظل يتبعهم ببصره حتى غابوا سريعا .وفرشكيسه تحت قدميه . وجلس القرفصاء وساعداه على ركبتيه . وفكر فيكيسه، ثم صاح بصوت عال ، محدثا نفسه :

« ولدتني امي على كيس مثلك . خافت على فراشها ان يلوثه الخلاص . كان ذلك في حظيرة المواشي . الاخرون ولدوا في فراشها . لكنهم ما توا جميعا . لهذا ولدتني يا امي على خيش في حظيرة . قلت لي ذلك يا امي . والان فقط اعرف السبب » .

*

كانوا ايقاظا ما يزالون . مد علي يده ليوقظه . فنهاه امين :

ـ دعه يفرج عن نفسه . هس .

*

ضحك ساخرا :

« قلت لنفسك يومها : ما دام سيموت ، فلماذا الوث الفراش ؟! »

وعاد يضحك .

بعد دراسات وابحاث استغرقت عدة سنوات ، تمكن علماء الكيمياء من اكتشاف :

DUO SUISSE

الدواء العجيب الذي يزيل قشرة الرأس والحكاك

وبعض تساقط الشعر

مختبرات ديو سويس ـ سويسرا

الوكلاء العامون والموزعون

منيمنة ـ شارع البرلمان ، بيروت

واتكأ على كفيه ، وزحف الى الخلف بكيسه ، واستند الى قائم الكوخ ، وغرس قبضتي يديه في حجره .

« وظللت يا امي تنتظرين موتي عبثا ، حتى مت انت . اولادي ماتوا ، واخرون من احفادي لحقوا بهم ، وما زلت حيا حياة نوح » .

وحاول ان يضحك ، فتهدج صوته بالبكاء .

*

ـ دعه يفرج عن نفسه .

*

عبر الضباب المعتم ، مرقت سيارة كبيرة على الشاطيء الاخر ، ولم تتوقف . وفكر انه سيأتي حتما في السيارة التالية ، وليس عليه سوى ان ينتظر قدومه . وراح يرقب الطريق بعينين لا تطرفان . ومر وقت طويل ، دون ان تطلع الشمس في الافق . واخذ الجو يزداد اعتاما . وفكر انهم سيأتون ، ويقتلونه هنا بفأس ، ويلقون به في بئر منها ، فقال لنفسه :

ـ مع انني واثق انه سيأتي ذات لحظة ، فلا بد ان الحق بهم ، فانا هنا عجوز وحيد ، ولا قبل لي بفئوسهم .

واحس بفأس ترتفع لتهوي فوق رأسه ، فهب واقفا ، لكن الفأس شدخت رأسه نصفين . فاستدار مرعوبا ليرى قاتله . وبهت حين رأى وجه امين . فصرخ مبهوتا : انت ؟ وسقط .

نهض ثانية خائفا ، ومسح دمه بسبابته عن عينيه ، والتقط كيسه ومقطفه ، وانحدر من الشاطيء الى قاع الترعة ، وانحنى الى جوار البئر ليتناول فأسه ، فسقط في البئر ، لم يكن ثمة ماء بها ، واحس انه يختنق برائحة الطين فصرخ مفزوعا صرخة عالية .

ـ ٩ ـ

تتابعت صيحات الغريب ، فايقظوه ، واجلسوه . والتفوا حوله يهدئونه . واحس الغريب بلمسة يد ، عرفها دون ان يرى لمن . فنفضها عن ذراعه :

ـ ابعد يدك عني . لماذا تريد قتلي ؟ لماذا ؟

كان صوته متهدجا ، على وشك ان يبكي . وزعق امين في وجهه .

ـ لا تقل ذلك مرة اخرى . اتسمعني ؟ لست قاتلا !!

واردف مؤكدا بصوت هادىء :

ـ لو قتلت كل الناس ، ما قتلتك انت . كيف اقتلك يا عمي ، وانت من بلدي ؟ كنت تحلم يا عم الغريب .

واحس الغريب بالخجل ، فقال :

ـ نعم . نعم . كنت احلم . لكن . لكنه كان حلما واضحا . كان رؤيا . لا . لا . لا يمكن ان تفعلها يا امين . يفعلها المقاول لا انت .. ما كان حلمي سوى اضغاث شيطان . معذرة يا ولدي .

واستلقى الغريب على ظهره ، وعرق بارد يتساقط من جبينه على عينيه واذنيه . وشال يده ، ومسح عرقه . وطال صمت رفاقه عنه ، ولم يكن راغبا بعدفي ان يتكلم . فراح ينصت منقبض الصدر للضفادع ، ناظرا بكآبة الى النجوم . وسمع محمودا يهمس :

ـ امين . لو ان احدهم رأى ما فعلناه بالنخيل ، لقتلونا ونحن نيام ، بفئوسنا هذه .

انزعج الغريب . وعاوده الاحساس بضربة الفأس . وتحسست يداه ذات الموضع . وود لو ينهض . لكن جسمه كان ثقيلا عليه . فظل يقظا ينصت . وسمع امين يهمس باهتمام :

ـ ربما حدث ذلك . ربما رأونا عصرا . ولعلهم ينتظرون الان ان تغفل عيوننا ، ليثأروا لنخيلهم .

قال علي : ـ وما العمل ؟

ـ لا شيء . لا بد ان نظل جميعا ايقاظا . لا نوم ، او نرحل الان .

ـ كيف نرحل ، والدنيا ليل ، والرجال متعبون من انتظاره طيلة النهار ؟

قال محمود : ـ انتظاره ؟ لعنة الله عليه .

قال امين : ـ هس . لدي فكرة لقتله .

شهق الغريب من ضجعته ، وقال :

ـ قتل من ؟

ضحك امين قائلا :

ـ المقاول ؟

تذكر الغريب قول الامام : « لو كان الفقر رجلا لقتلته » ، فقال بحماس : ـ كيف ؟

ونهض على جنبه متكئا على مرفقه . فقال امين :

نجمع انفسنا ، ونعيد ما اخرجناه من الطمى الى الترعة .

واتم الغريب جلسته ، فيما كان امين يكمل :

ـ نسوي مسافة طويلة منها بالشاطئين . سيتم ذلك سريعا . ومع الفجر نرحل .

ومال امين على الغريب ، وهمس وعيناه تبرقان في الظلمة :

ـ ليس ايسر من الهدم .

وجاوبه الغريب بنظرة حادة ، وهمس محذرا في وجهه :

ـ اياك ان تفعل !

فقال امين مقلدا له في وجهه :

ـ بل سأفعل .

والتفت الى الاخرين قائلا :

ـ سأذهب الى الانفار ، واقول لهم ذلك . سيفرحون جميعا بالفكرة .

قبض الغريب على ذراع امين . وقال محذرا :

ـ اياك ان تفعل !

فتر امين يده ، وقال بحدة :

ـ اسكت انت ايها العجوز . سنقضي عليه لدى من فوقه ، كما قضى علينا .

هب الغريب واقفا ، وفأسه في يده . وادار ظهره الى باب الكوخ . وقال مؤكدا : ـ اذن . سامنعك بهذه الفأس .

ورفع الفأس الى كتفه مستعدا ، وضحك امين قائلا :

ـ انما افعل ذلك ، ليظل الانفار يقظين ، وفئوسهم في ايديهم .

فقال الغريب بانفة : ـ هه .

فصاح امين ، ملوحا بيده :

ـ اتريد ان يقتلنا اهل الناحية غدرا ؟

فقال الغريب :

ـ اتلفتم نخيلهم ، فكيف نحرمهم من الماء اياما طويلة ؟ فلنظل ايقاظا ، او نرحل الان ، ما دمنا خائفين .

هتف امين ، ملوحا بذات اليد :

ـ وهو ؟ كيف نتركه بلا ثأر ، وايدينا لا تطوله ؟

انزل الغريب فأسه ، وظلت يده في يده ، وقال :

ـ يا امين . يا ولدي . لو كان هو بنفسه هنا ، ورفض ان يدفع ، لقتلته بيدي هذه . لم يعد عمري هاما لي . لكن ما ذنب الترعة ؟ كيف نبدد العمل الذي انجزناه ؟

كانت الفكرة تسيطر على امين بجنون ، فقال متحديا وهو ينهض :

ـ ليس الرأي لك وحدك .

ـ عد مكانك .

ـ اعطني هذه الفأس .

فقال الغريب بصوت عميق :

ـ لن تغادر هذا العش حتى نرحل معا .

ـ من يمنعني ؟

ـ انا سأمنعك !

وتقدم امين نحوه ببطء .

ـ احترس ، ففأسي في يدي .

ورفعها الى كتفه مستعدا . فقال امين بلا مبالاة :

ـ فأسك في يدك ، لا تساوي قشة .

ومد امين يده ليخطف الفأس ، لكن الغريب كان قد رفعها عاليا . وهب الاخران صائحين . وفيما كانت الفأس تهوي ، امال امين رأسه ،

فسقطت كعب الفأس على كتفه ، وامتدت يداه في سرعة ، ونزعتها من يد الغريب ، ثم هوى بها غاضبا على رأسه : « خذ » ، فشدخها . وسقط الغريب يزحر تحت قدميه . وصاح الاخران :

ـ قتلته ؟!

وجثا امين بجانبه . وفتح الغريب عينيه ، ورأى وجهه :

ـ انت ؟ الم اقل لك .. انها رؤيا ؟

طأطأ امين رأسه .

ـ لا تحجز الماء يا ولدي .

همس امين :

ـ لن نفعل .

ـ سال عرقنا فيها شهرا .

وزحم الانفعال امين ، فقال بصوت خجل ، متهدج :

ـ ضربتك بيدي .

وحدق في يده مغيظا . ومسح الغريب الدم عن عينيه بسبابته :

ـ بل قتلتني .

ـ لم اقصد هذا يا عمي .

ـ لم تقتلني انت . قتلني المقاول . قتلني بيدك . قتلنا جميعا منذ .. زمن بعيد .. منذ .. ولدت .. انا ..

ـ سامحني يا عمي .

كانت جدران السمار قد انهارت ، تحت ضغط الانفار . والتفت الغريب نحوهم قائلا :

ـ الحي ابقى من الميت .

واراد ان يفتح عينيه ، لينظر الى امين ، لكن الدم كان قد تخثر فيهما ، والصق جفونهما . فقال بصوت يتحشرج :

ـ ادفعني .. هنا .. في البئر .. السابعة .. يا ولدي ..

ورأى الماء يملأ الترعة ، ويغمره ، عبر طين القبر . وفكر ان نوحا ربما مات غريقا ، في سيل الماء مثله . واختلج جسده ، ثم سكن .

ـ ١٠ ـ

وبات الانفار ايقاظا . وامين منفي ساهر وحده . باتوا يقولون :

ـ القاتل ؟

ـ لكنه قال: الحي ابقى من الميت .

ـ لم يقتله .

ـ نعم . الحي ابقى من الميت .

ـ من قتله اذن؟

ـ على اي حال ، كان عمره مائة وعشرين سنة .

ـ قتله المقاول بيد امين .

ـ يـاه .

ـ كيف ؟

ـ نعم . الحي ابقى من الميت .

ـ هذا هو ما حدث . الم تسمعه ؟

وكانت الضفادع ما تزال تصر ، والنجوم ما تزال تومض . لكن احدهم لم يسمع ، ولم ير .

ـ ١١ ـ

ظلوا ايقاظا . ومع الفجر اخذوا يستعدون للرحيل . كان امين جالسا في الكوخ المنهار ، ينظر في الترعة الى قبره الرطب . واغمض عينيه ، وتنهد في اسى . وفكر انه لولاه ، لقتلوه الليلة بفئوسهم. كانت الاشياء مكللة بالندى ، والنجوم تنحدر في الافق ، والرجال يتنادون في ضياء الفجر . وتباعا اخذوا يعلقون المقاطف في الفئوس ، ويطرحون اكياس الخيش على اكتافهم .

ـ هيا بنا يا امين .

ـ لا . اذهبوا انتم .

قال علي :

ـ ستاتي معنا . لن ندعهم يقتلونك .

ـ لن آتي . سأظل معه هنا حتى يطلع النهار .

واشار امين برأسه تجاه بئره . قال محمود :

ـ سيقتلونك ؟

ـ فليكن . سأبقى هنا .

وسمع امين صوتا يقول :

ـ من قتل بالسيف ، بالسيف يقتل !!

وجم امين لحظة ، ثم قال بلا اكتراث :

ـ فليكن . سأبقى هنا .

قال علي :

ـ كيف تبقى هنا ؟

واطبق شفتيه طويلا .

ـ دعوه اذن .

وانحدروا من الشاطىء الى قاع الترعة . التفت بعضهم نحو بئره المردومة . وصعدوا الى الشاطىء الاخر . وواصلوا رحلتهم في الضباب والندى . تبعهم امين ببصره . وحزن لان احدهم لم يلفت رأسه نحوه . واحس بالتعب ، فاغمض عينيه ، وغفا في جلسته : ورأى شخصه ينحدر بفأسه وكيسه ومقطفه ، خائفا من رقدته هناك في البئر ، ثم يصعد في الضباب ، وينحرف يمنة ليلحق بهم . وفكر انه ، ينام في البئر ، فاحس بالخوف ،وارتجف ، وطمس الضباب الطريق في عينيه ، واحس ان قدميه تهويان في غير ارض ، وعاوده ارتجافه ، فاسرع يفتح عينيه . وفكر انه كان يحلم . ومد بصره الى مرقده . ودهش اذ رأى الماء يسيل في خيط رفيع ، راح يتسع تدريجيا ، مقبلا من بعد ، صوب بئره . وارتعد لاجله ، فلسوف يكون الماء باردا عليه . وتساءل في دهشة : « لم اصر انيقبر في هذا الماء البارد ؟ »

كان الماء قد غمر قبره ، وراح يعلو فوقه . وصوتت الطيور طربا فوق الاشجار . وراحت تتواثب فوق الماء محومة . وبعضها كان يلمس سطحه باطراف اجنحته . واحس بسرور يتردد في صدره. وشعر كانه يغتسل ، فقام من مكانه ، وجلس على درجة مرقى كان قد صنعه بفأسه ، ودلى ساقيه في الماء ، واخذ يتأمل سعيدا دواماته المتتابعة ، وهي تتقدم بلا توقف .وسمع صوتا يصيح وراءه :

ـ ها هو واحد منهم .

ـ ١٢ ـ

التفت امين بعنقه ورأسه مذعورا . فكر ان الفلاحين قد شموا رائحة الماء . رآه امامه شامخا ، هائلا ، مديرا عنقه خلفه . رآهم يعدون نحوه مقبلين من بعد . لمحت عيناه جانبا من مشهد النخيل . جهد ليزحف ، ويأتي بفأسه ، وكيسه ، ومقطفه . كان الاخر اسرع منه. خطف فأسه . استدار نحوه ، وضربه بكعبها على رأسه . ارتد هاربا الى الماء ، ليعبره . لم يستطع ان ينهض ليحفظ توازنه في النهر .انقلب على ظهره في اللجة . وسحبته دوامة الى جوفها ، ثم اقامت عوده ، وراحت تدور به . احس بقدميه تغوصان سريعا في غير ارض . ودارت الدوامة هنيهة فوق البئر . يداه تخبطان عبثا في جدرانها . فمه مفتوح يدفع الماء ويتجرعه . وخيط من الدماء يذوب دائما على خده . فكر ان جده يجذبه من قدميه ، ليرقد معه . وكانت الدوامة تتقدم بعيدا ، بدونه .

الاسكندرية — سليمان فياض

طبعت على مطابع

دار الغد

تلفون : ٢٢٢٩٢١